تاريخنا القديم من مرآة الغرب

ـ عرض ونقـــد ـ

أحمد السليماني

ان الحديث عن تاريخ الجزائر القديم حديث ذو شجون، ويعاني هذا التاريخ من النقص الملحوظ من ناحية الكتابات الوطنية، مما جعله مرتعا خصبا للأقلام الأجنبية، لتكتب فيه حتى أصبحت أعمالهم وبحوثهم كمراجع يقتدى بها، والواقع المعاش يشهد أنه لا ما فر لنا من العودة الى المؤرخين الأجانب ، لانهم سخروا كل جهودهم لتدوين تاريخ الحضارة القديمة في افريقيا الشمالية وأثمرت جهودهم[1] عن مؤلفات هامة ذات قيمة نذكر منها على سبيل المثال أعمال ستيفان قزال فقد ألّف تاريخ افريقية الشمالية في ثماني مجلدات. وهناك أعمال بالو Balont ، حول الحقبة البونية ثم الحقبة المغربية ثم هناك أعمال قوتية وموسكاتي وستاس الذي خص الحضارة القرطاجنية بدراسات هامة تخص الفخاريات، وكامبس، وبيكار، وشارل أندري جوليان وكل هؤلاء ألفوا كتبا تاريخية وآثارية نفيسة وقد خصص جبريل كامبس Camps كتابا حول الحضارة التي ظهرت في ما قبل التاريخ بافريقية الشمالية والصحراء، ونشر هذا الكتاب بباريس عام 1974 ويحتوي على 374 صفحة.

G. Camps, Les civilisations prehistoriques de l'Afrique du nord et du Sahara, ed. 1976.

وألّف ميكوالي وهو مؤلف أنجلو ساكسوني كتابا حول العلاقات ما بين الصحراء المصرية والصحراء الليبية ومنطقة وادي النيل.

Mikwally (M.), History of the relations between the Egyptiagn and the Libyben desert and the Nile valley.

واعتمد المؤرخون الغربيون في كتاباتهم التاريخية عن أفريقية الشمالية والصحراء الجزائرية ولو أن هذه الأخيرة أهتم بها المبشرون والمكتشفون والمغامرون أكثر من المؤرخين والآثاريين المختصين على ما كتبه القدماء من المختصين في التاريخ كالاغريق واللاتين، فوجد الفرنسيون والانجليز والألمان الطريق معبدا نحو كتابة تاريخ افريقية الشمالية بفضل أعمال اليونان والرومان.

فالروايات التاريخية التي تخص ملوك الجزائر القدماء مثل غايسا وماسينيسا ويوغرطة ويوبا الثاني، وحنبعل وتلكفريناس لم تكن هذه الرواية التي ذكرها ستيفان قزال وشارل أندري جوليان من ابداعهم واكتشافاتهم التاريخية بل الفضل يعود الى من سبقوهم، مثل سالوست وتيت ليف وبوليبيوس وأبيان الذين وافوهم باخبار تخص حياتهم وأحوالهم وحروبهم وعلاقاتهم الجهوية والدولية.

ولكن تطور علم الآثار قد ساعد المدرسة التاريخية الفرنسية في مهماتها ، فنشطت أعمالها بعد احتلال الجزائر عام 1830، وكانت باكورة جهودها المجلة الافريقية التي ركزت على التاريخ الروماني والليبي والبوني والإسلامي وشارك فيها بجانب المؤرخين الفرنسيين المشهورين مؤرخون جزائريون مثل محمد بن شنب عميد كلية الآداب، والحاج الصادوق وبن رحال وغيرهم.

أجل لقد ساعد هذا العلم الجديد (أي علم الآثار في تسليط الأضواء وإزالة الغموض على بعض المراحل التاريخية القديمة بافريقية الشمالية لم تكن لنا معلومات واضحة عنها من قبل. كالعصور الباليوتيكية ، والنيولتيكية، وبفضل علم الآثار استطعنا أن نتعرف على العصور الحجرية التي ظهرت أثناءها الحضارة الحجرية التي اعتمد ت على الحجارة كأدوات استعملها الانسان في حياته اليومية وتعرض ستيفان قزال الى هذه الحضارة اعتمادا على الحفريات الأثرية في كتابة تاريخ افريقية الشمالية القديم.

وعندما نتحدث عما كتبه المؤرخون الأجانب عن تاريخ الجزائر القديم بل تاريخ افريقية الشمالية القديم بصفة عامة فهذا لا يعني أن الجزائريين لم يساهموا في هذه الكتابة لأن الواقع يشهد أن هناك جزائريون كتبوا في التاريخ الجزائري[3]، ولكن تبقى أعمالهم متواضعة ومحدودة وتفتقر الى العمق والغزارة والكشف عن الجوانب التي لم يتعرض لها المؤرخون من قبل .

على كل حال[2] هناك آمال معقودة على النخبة الجديدة من المؤرخين الجزائريين من تغيير الوضع هذا، لأن واقع الكتابة التاريخية في القديم يشكو فقرا كبيرا، ولا غرابة بل ليس من باب السرية أن أذكر ما قاله لي خبير عالمي من منظمة اليونسكو زار الجزائر بمناسبة ملتقى له طابع عالمي، حيث قال: ان الجزائريين لم يكتبوا بما يشفي الغليل عن تاريخهم القديم، فهذه الشهادة لخبير له من الاحصائيات والمعلومات حول ثقافتنا التاريخية في الجزائر يكفينا لتدارك الأمر، فنشمر عن سواعدنا ونهب لكتابة تاريخنا القديم بكل جدية وأمانة وموضوعية. وقد أبلى الجزائريون في علم الآثار والبحث الميداني الآثاري، ولكنهم لم يكتبوا كثيرا في تاريخ الجزائر القديم (كما سلف ذكره. فكما هو معلوم ان الحفريات الآثارية تعد كعلم مساعد للمؤرخ في كشف خفايا بعض الحقب التاريخية لاكتمال الرؤيا وتدوين التاريخ وتفسيره كاملا.

ولا أدري ما هو السبب الذي أدى بالجزائريين أن يبرهنوا على حيوية ونشاط وقابلية للحفريات الآثارية التي تعود للعهود الرومانية على الخصوص، بينما يعزفون عن الكتابة التاريخية للجزائر في القديم؟ وتتمثل الحفريات التي قام بها الجزائريون ما بعد الاستقلال في مدة زمانية تتراوح ما بين 1962 و 1977 ، واكتشفت أثناءها آثار هامة وأنيطت بمصلحة الآثار القديمة بحديقة الحرية بمدينة الجزائر مهمة ضبط وحصر كل الأعمال والأبحاث الآثارية التي جرت في الجزائر، القطر لا المدينة).

أما المركز الوطني للبحث فيما قبل التاريخ والانثربولوجية فاهتم بأعمال التنقيب الخاصة بما قبل التاريخ، ولهذا المركز مجلة ليبيكا التي نشرت فيها نتائج الأعمال والأبحاث الاثارية ، وهي مجلة اثارية سنوية، صدر منها حتى الآن ست مجلدات، وهناك مجلة أخرى عنوانها ليبيكا أيضا وهي تختص بالأركيولوجية والإيبيكرافيا رغم أنها تحمل نفس العنوان والجزائريون المهتمون بالآثار وأعمال التنقيب والمشاركون عملياً في الحفريات، يمثلون نسبة قليلة إذا ما قارناها بمصر، أو سورية، أو تونس، أو

فرنسا، أو الولايات المتحدة الأمريكية. وهؤلاء الجزائريون (باستثناء البعض) ليست لهم تجربة أو تجارب عميقة في البحث العلمي الأثري مع الأسف، ولكن في أواخر الستينات عرف علم الآثار في الجزائر تطورا ملموسا ، ففي سنة 1968 و 1969 أشرف جزائريون مختصون على اعمال التنقيب الاثاري بتعاون مع خبراء أجانب لهم صيت على المستوى العالمي، واستفاد الجزائريون كثيرا من الباحثين الغربيين من أجل التعرف على آخر ما وصل اليه العلم الحديث في تقنيات البحث الأثري.

وأنصبت أعمال البحث الأثري ما بين 1962 و 1977 أي على مدى 15 سنة حول مواقع أثرية موجودة في تبسة، وسطيف، ولامبيز، وتيديس وتيبازة والناضور، وشرشال، وفرندة (والمقصود بهذه المدينة الأخيرة منطقة مملكة لجدار التي تبعد بضع كيلومترات عن مدينة فرندة)، وسيكا وتميزت البحوث الأثرية بأنواع ثلاثة هي كالآتي:

أولا : بحث أثري أشرفت عليه مصلحة الآثار القديمة.

ثانيا : بحوث أثرية أجريت في إطار اتفاقيات بين الجزائر ودول غربية مثل ايطاليا وألمانيا الغربية.

ثالثا : تنقيبات كان الهدف منها إنقاذ آثار بعد اكتشافات تمت عن طريق الصدفة.

ومن الملاحظ أن المؤرخين الغربيين اهتموا كثيرا بهيرودوت، مع العلم أن المؤرخين والعلماء والانجليز سبقوا قزال في دراسة أعمال هيرودوت ونضرب مثلا على ذلك ، الألماني بوهر Boher الذي ألف دراسة جادة عن المؤرخين الاغريقيين نشرت في ليبزيغ عام 1856، وهناك دراسة أخرى بقلم ستاين نشرت ببرلين عام 1896، وتوجد دراسة أخرى بقلم المختص الألماني أبيشت Abicht نشرت بليبزيغ عام 1886 م.

وألف الأنجليز دراسة عن هيرودورت في القرن الماضي أشهرها ما كتبه العالي راوليسون وعنوانها تاريخ هيرودورت نشرت عام 1858 ثم في 1860 . هذا ويظل المؤرخ ستيفان قزال في طليعة هؤلاء المؤرخين نظرا لأهمية كتاباته وغزارة المادة التي اعتمد عليها. الا أنه لا يخلو في نظرنا من نواقص ، فعلى سبيل المثال: طبيعة النظام

السياسي للدولة القرطاجية. فأورده في كتابه تاريخ افريقيا الشمالية القديم أن قرطاج أي قرطحدشت ، أي المدينة باللغة البونية كانت عبارة عن جمهورية ارستقراطية وتجارية كانت تشبه من ناحية نظام حكمها كجمهورية فينيسيا بإيطاليا في عصر النهضة، بينما البحوث أثبتت عكس ما كان يتصوره ستيفان قزال ويتجلى ذلك في نظرية المؤرخ الألماني بيلوش Beloch التي يتقبلها المؤرخون المعاصرون بارتياح، وهو يعتقد أن نظام الحكم في قرطاجنة مر بمراحل تاريخية وسياسية حسب أطوار تاريخية واضحة، وهي أول مرحلة للحكم المقدس أو الحكم الملكي، ثم مرحلة الحكم الارستقراطي، وأخيرا مرحلة الحكم الديمقراطي.

وقام ستيفان قزال بمجهود جبار في تعميق وعي المغاربة بتاريخهم القديم واعتمد كما سلف ذكره على أعمال المؤرخين الاغريق الذين كتبوا عن ماضي افريقيا الشمالية في اطار التاريخ الروماني العام ، أي من خلال علاقات الرومان بالليبيين في فترات الاستعمار الروماني لأرض المغرب القديم ، أو في اطار دراسة تاريخ العالمي المعروف آنذاك.

وهناك بعض العيوب في كتابات المؤرخين الغربيين حول تاريخ المغرب القديم يمكن أن نجملها فيما يلي:

1 ـ استعمل المؤرخون الغربيون تعابير ومصطلحات لا علاقة لها بالنزاهة العلمية والموضوعية التي يجب أن يتسم بها المؤرخ وكلفظة (بربر) والغزو العربي افريقيا الشمالية.

2 ـ اعتبار أهل المغرب بأنه شعب لم يكن له في القديم أي كيان ووحدة سياسية تجمعه وهذا يعود حسب اعتقادهم الى العوامل الجغرافية والطبيعية التي تحول نحو تحقيق وحدة سياسية واجتماعية بينما الواقع حسب المعطيات التاريخية فان الوحدة السياسية والثقافية تحققت في القديم في عهد ماسينيسا وفي عهد يوغرطة، ثم في العهد الاسلامي أثناء حكم المرابطين ثم الموحدين ، وهذه ظاهرة إيجابية وحدوية تدحض النظرة الغربية حول تاريخ افريقيا الشمالية.

3 ـ تبني المؤرخون الغربيون ومنهم قزال ستيفان نظريات لها أسس واهية تخص القيم والعادات التي كان عليها المغاربة القدماء التي حسب اعتقادهم لها دور في التاريخ المغربي حتى في العصر الإسلامي ، وقد تبناها بعض الباحثين بدون مراعاة

صدقها أو وجودها فعلا. وقد ذهب في هذا الاتجاه المؤرخ دوتي صاحب السحر والديانة في افريقيا المالية، الى أبعد الحدود، حيث قام بدراسة اجتماعية ودينية للتقاليد المغربية وبنى عليها أفكار لا علاقة لها بأخلاق المغاربة مع العلم أنه كان يخدم بأفكاره هذه الاتجاهات الاستعمارية التي تنفي وجود أي شخصية وطنية للجزائري أو المغربي على العموم.

4 ـ من عيوب الدراسات أنها لم تستطع أن تسبر أغوار تاريخنا من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والحضارية ، والا كيف نفسر عدم تخصيص ولو فصل واحد لتاريخ الجزائر القديم، بل المغرب القديم في تاريخ الحضارات العام الذي يتكون من ثماني أجزاء حول تاريخ العالم وحضارات العالم. وقام بتأليف المجلد الأول أندري إيمار وجانين أبوايه وهو يخص حضارات الشرق القديم وآسيا الصغرى وغير ذلك.

وهذا يدل على روح الاستعلاء الفكري والعرقي المتأصلة عند الفرنسي والأوروبي على العموم، علاوة على روح التعصب للحضارة الغربية والثقافة الغربية ونفس الخطأ وقع فيه ويل ديورانت، وأرنولد توينبي ، الأول صاحب المجلدات ـ قصة الحضارة والثاني صاحب كتاب مختصر دراسة التاريخ في أربعة أجزاء. حيث لم يتطرقوا في مؤلفاتهم لتاريخ وحضارة بلاد المغرب القديم، وكأنها نكرة ولا وجود لها في التاريخ أي الأرض المغربية.

وهناك جانب آخر وهو وجود تفاهم كبير بين المؤرخين الغربيين القدماء والمعاصرين من ناحية نظرتهم الى المغاربة القدماء أي الليبيين، وهذه النظرة لها صبغة احتقارية. فمثلا الثورة التي قام بها المغاربة القدماء في صقلية ضد الاستقراطية القرطاجنية التي تماطلت من تأدية أجور النوميديين ، فقد تم نعت هؤلاء المغاربة بالمرتزقة بكل بساطة وبجرّة قلم، واستعمل هذا المصطلح ستيفان قزال وشارل اندري جوليان وغيرهما.

على كل حال فإن النظرة الاستعمارية لتاريخنا القديم في حاجة ماسّة الى إعادة نظر وتصحيح وغربلة ، ان صحّ التعبير، لان هناك مآخذ كثيرة يضيق المقام عن ذكرها بالتفصيل.

هذا ونلاحظ في ختام هذا العرض أنه لا يمكن نكران الأعمال الكبيرة التي قام

بها المؤرخون الغربيون في كتابة تاريخ المغرب القديم وتاريخ الجزائر على الخصوص، ومنهم الفرنسيون مثل قزال وبيكار، وستاس، وفيفري، وأنشائهم مجلات تاريخية علمية لها صبغة حدية مثل المجلة الافريقية وليبيكا وغيرهم.

ولعبت هذه المجلات التاريخية أدورا كبيرة في الكشف عن بعض العصور الماضية من تاريخنا كان يكتنفها الغموض والابهام فأصبحت هذه العصور بعد الدراسات الغربية لها يسودها شيء من الوضوح وأصبح المؤرخ الجزائري لا غنى عنه للرجوع الى أعمال المؤرخين هؤلاء أي كتبهم ومجلاتهم الصادرة في العهد الاستعماري كوثائق ومراجع ضرورية رغم المظاهر السلبية التي تطبعها أحيانا.

ولا بد أن يتم سد النقص الملحوظ عن طريق تأليف دراسات بأقلام وطنية عن تاريخ المغرب القديم وتاريخ الجزائر القديم، لكي يتم ملء الفراغ الحاصل نتيجة الافتقار الكبير للدراسات التاريخية المعمقة عن تاريخ افريقيا الشمالية قديما وهناك شروط ضرورية لتحقيق هذه الأمنية ويتجلى في فتح قسم خاص باللغات الشرقية القديمة كاللغة الفينيقية واللغة العبرية وكذا دراسة اللغة الليبية القديمة التي لم يتم حتى الآن فك رموزها. ثم لا ننسى أهمية دراسة اللغتين الاغريقية واللاتينية نظرا الى أهميتها في تاريخ المغرب القديم. وقد تم الغاء اللغة اللاتينية من معهد التاريخ أخيرا، ونتمنى أن يتم إعادة النظر في هذا القرار في اطار اصلاح برنامج التاريخ لان الطالب المتخصص في تاريخ المغرب القديم لا بد أن يكون على المام باللاتينية والاغريقية، وحتى اللغات الشرقية لكي يستطيع أن يتعمق في هذا التاريخ.

الهوامش:

(1) لقد وضع الفرنسيون جرداً عاماً لما ألفوه عن الجزائر، فكان نصيب التاريخ القديم 252، وتاريخ الوسيط والحديث 198، والتاريخ المعاصر 369، والمونوغرافيا 129، والبيبليوغرافيا 119. وفي عالم الأدب كتب الفرنسيون 241 رواية وقصة و43 مسرحية و100 مقالة نقدية و224 قصيدة شعر و25 بحثاً في الجغرافية و44 دليلاً سياحياً حول عادات الجزائريين. و58 دراسة حول منطقة القبائل. و184 دراسة عن الصحراء.

(2) بدأت تتشكل في الاونة الأخيرة نواة لمدرسة تاريخية تهتم أساسا بما قبل التاريخ والتاريخ القديم (العهود الفينيقية والقرطاجية والرومانية) في مقدمة من ساهموا بكتاباتهم في هذا المجال نذكر: الأساتذة: محمد البشير شنيتي، محمد الصغير غانم، محمد الطاهر العدواني، منير بزشناقي، مليكة حشيد، مصطفى فلاح، كلثوم دحو، تومية رويني وغيرهم.

سالوستيوس وحرب يوغرطة
(دراسة تحليلية نقدية)

محمد الهادي حارش

موضوع ملتقانا هذا ـ المدرسة الغربية وقضايا التاريخ الجزائري ـ ومصطلح المدرسة الغربية مصطلح حديث. وأنا أتناول بالدراسة موضوع «حرب يوغرطة» من وجهة نظر مؤرخ روماني، وبالتالي ربما يتبادر الى الأذهان من الوهلة الأولى أنه خارج موضوع المدرسة الغربية، لكن لو تمعنا جيدا فيما كتبه المؤرخون الاغريق والرومان لا حول المغرب القديم فحسب، بل حول الشرق كلـه، لوجدنا أن المدرسة الغربية حديثة كمصطلح ، وقديمة قدم التاريخ كفكر، وتكفينا نظرة على كتاب بلوتارخوس[1] (الاخلاقيات Moralia ، الذي يحتوي على جزء سماه : تحيز هيرودوت (De malignitate Herodotis) اتهم فيه أبا التاريخ بالميل والتحيز الى البرابرة (الشرق) وأتهمه بالاجحاف ، ذلك لانه لم يكن متحاملا على الشرق، بل نقول أنه لم يظهر تحامله على الشرق، وتبجحه في شعوره القومي[2] ، مثله مثل غالبية المؤرخين الاغريق والرومان، خاصة الذين يستهدفون وراء كتاباتهم تمجيد الأمة الرومانية، واظهار قوتها وفضلها، وبالمقابل اعتبار كل الشعوب والأمم الأخرى همجا، لا دين ولا ملة لهم، جبلوا على المكر والخديعة، ونذكر من هؤلاء المؤرخين على سبيل المثال لا الحصر تيتوس ليفيوس وسالوستيوس. وربما كان هذا هو السبب وراء اختياري لكتاب سالوستيوس كموضوع بحث لهذا الملتقى.